-١-

تركة بسمرك

١٨٧١-١٨٩٠

obeikandl.com

لم يكن تأسيس الامبراطورية الالمانية الحديثة بحال من الأحوال مسألة داخلية فحسب فان المرء خليق اذا هو فكر قليلا فى الماضى واستحضر في أسطر قليلة مصائر الشعب الالمانى مذ ولت العصور الوسطى ليتمثل : تمزق عصر الاصلاح ، وشقاء حرب الثلاثين السنة الذي لا حد له ، وكيان الامبراطورية القديمة الاجوف الصوري ، ومعارك فريدريك الأكبر الهائلة التى طالما تملكها اليأس فى سبيل وجود بروسيا ورفعتها ، وعصف حروب نابليون ، ثم ذلك الاغفاء فى النصف الاول من القرن التاسع عشر يكتنفه الغموض والاغماء . نقول اذا وضع المرء هذا الذي ذكرنا نصب عينيه فانه خليق أن يذكر فى الحال أن حادث ١٨ يناير ١٨٧١ كان خلقا جديدا هائلا فى حياة أوربا السياسية . فانه سرعان ما اتحدت وتضامت تلك الصورة أو ذلك الهيكل المتفكك الذي حكم عليه قرونا أن يظل ضعيفا واهنا ، وأصبح كتلة متراصة في خاتمة المطاف بالحرب البروسية الدنيماركية عام ١٨٦٤ والنزاع البروسى النمسوي عام ١٨٦٦ والصدام الالمانى الفرنسى عام ١٨٧٠ـ ١٨٧١ . وحالت فكرة «المانيا» التى لم تكن تحيا الا فى مخيلة الشعراء وفي أمانى المفكرين السياسيين حقيقة واقعة دفعة واحدة اذ نهضت فى قومة واحدة قوية وسط أوربا الواهن المنحل وأصبحت بين يوم وليلة دولة عظمى . وهذا انقلاب ـ اذا اعتبرناه من الوجهة السياسية ـ كالانقلاب الذي يحدثه من الوجهة الجغرافية نشوء سلسلة جديدة من الجبال . انقلاب اضطرت معه الدول الأوربية التى اعتادت أن لا تؤبه بالارض الواقعة « بين الماس والميمل ، والاتش الى البلت » بل التى اعتادت أن تؤثرها على غيرها في استخدامها ميدانا للقتال ـ وأرغمت دفعة واحدة على أن تحسب لألمانيا حسابها فتعتبرها من أندادها ، وتطيقها ـ وهى حديثة النعمة ـ فى طائفة الدول العظمى المكرمة. وهذا المركز الجديد كله والذي كاد أن لا يلقى من أحد ترحيباً يرجع الفضل فيه الى عبقرية بسمرك السياسية وعبقرية مولتكه العسكرية . فقد كان بمثابة

ثورة كبرى فى أوربا القديمة التى كانت تدخل في دور من الزمن كان فيه حكام أوربا هذه يعملون بهمة على اقتسام بلاد الكرة الارضية الاخرى . فتأسيس الامبراطورية الالمانية الحديثة لم يكن اذن غير منتظر فحسب بل جاء أيضاً متأخراً جداً . وهذا كله كان من شأنه طبعاً أن يحف ذلك المولود الجديد من الساعة الاولى ومن جوانب كثيرة بالمكاره .

لم يستبن الاخطار أحد كما استبانها خالق هذا الكائن الجرىء : البرنس أوتوفون بسمرك . ولقد يسع المرء أن يقول ان الخوف من هدم البناء الذي شاده بهذه السرعة العجيبة كان المحرك لسياسته كلها بين ١٨٧١ ــ ١٨٩٠ . وقد يبدو هذا غريباً من سياسى يصرف الأمور لكنه برغم ذلك ــ أو بعبارة أصح ، من أجل أنه سياسى يصرف الامور ــ يطابق الحقيقة . فقد كان منذ تولى منصب مستشار الريخ الى أن غادر هذا المنصب يضع نصب عينيه بلا انقطاع احتمالات السوء وامكان تألب الامبراطوريات الأخرى على المانيا ، فكان لا ينفك يرى فى « كابوس الائتلافات » ــ كما كان يسميه ــ ذلك الشبح الذي لم يذق طعم الراحة في مصارعته . كان يلم بنقط الضعف المختلفة التى تلازم أمة واقعة وسط قارة ، أمة من اليمين واليسار ، من الشرق والغرب مفتوحة الحدود ، معرضة دائما لسطو جيوش الغزاة الاجانب كما ينبئنا التاريخ . وقد كان أبداً على ذكر من تلك التجربة المرة التى شهدها فريدريك الأكبر ، ونعى بها : محالفة فرنسا والنمسا والمجر والروسيا . كان يعلم ان دولتى الغرب . انكلترا وفرنسا قاتلتا في حرب القرم جنبا الى جنب تقريباً مع مملكة الطونة وفوق هذا كان يعلم كل العلم ان جارته الغربية المغلوبة ما كانت لتتسلى عن الهزيمة التى الحقت بها ، وأن الامة الفرنسية التى جرحت فى أشد مواضعها حساسية أو بعبارة أخرى أصيبت فى حب الشهرة ، كانت تفكر في الانتقام لا لانها أضاعت الالزاس واللورين فحسب بل لاسترداد ما فقدته من السيادة في القارة أيضا . فلقد كانت « الاقاليم » التى استولى عليها الخصم الالماني في

الجهة الاخرى من الفوج ـ رمزا لتلك الرغبة الخفية : رغبة السعي الى السيادة من جديد . وكان الجرح أغور مما كان يبدو في الظاهر : فقد قاست فرنسا أشد ماقاست من ذلك الانقلاب الاوربي الذي أسلفنا وصفه فلم تعد تقوم بالدور الأول الذي كانت تقوم به فيما مضى من الزمان وباتت تتربص لكل فرصة يمكن اقتناصها للخروج من مركزها السياسي السيء . وهنا كان المصدر الاخير لكل الأخطار التى أسلفنا الكلام عنها .

ونحن اذا محصنا ماأداه بسمرك في ميدان الدبلوماسى بهمة لاتعرف الكلال الفينا على الفور أن همه كله كان موجها الى التغلب على نقط الضعف التى ألمعنا اليها والتى كانت تكتنف الامبراطورية الالمانية الجديدة . لكنه كيف كان يعمل لهذا ؟ وأية آراء جوهرية كانت توجهه ؟

ولنبدأ بالنقطة الاخيرة وبعبارة أخرى بفرنسا فنثبت مايلي في شيء من الايجاز : كان همه منذ اليوم الاول لعقد الصلح أن يتخذ حيال باريس موقفاً دقيقاً كيلا يلهب شعور الفرنسيين القومي المكلوم في غير ماداع . فكانت الفكرة التى طالما قال بها العسكريون وحثوا عليها في مختلف المناسبات ، فكرة اشعال نار حرب جديدة تحول دون تقوي الجارة المعادية تقويا سريعاً أو بعبارة أخرى ما كانوا يسمونه بالحرب المنعية — لاتلقي هوي فى نفسه ولا تصادفه الا الاعراض . فهو لم يكن يعتقد فحسب بأن هذه السبيل لاتكسب المانيا شيئاً بل كان يخشى أيضاً أن حربا كهذه كانت خليقة أن تجر على المعتدي خصومة الكثيرين فى كافة نواحي العالم . وهذا الرأي بعينه أقره الامبراطور غليوم الاول فى يوم ١٦ مايو سنة ١٨٧٥ إذ أورده في حاشية علق بها على مقال كان يرى صواب اشعال تلك الحرب المنعية في وجه فرنسا قال : انه لكي تنتهي الحروب بالفوز يجب أن يولى المهاجم عطف الناس والامم ممن نبلت مقاصدهم وان يلقى من خاض الحرب باغياً غضب الرأي العام . وهذا كان سر الحماسة التى اضطرمت فى المانيا عام ١٨٧٠ ! فان من يلجأ الى السلاح بلا مبرر لابد أن

يهيج على نفسه ثائرة الرأي العام . انه لن يجد حلفاء أو محايدين يتمنون له السلامة أو محايدين ايا كانوا . بل كل ماهو خليق أن يلقاه هم الخصوم .»

كان بسمرك يسعى بحسابه الواضح الى صرف مطامع فرنسا الى الخارج بتشجيعها على طلب المستعمرات وبخاصة بعد سنة ١٨٧٥ عند ماوفقت باريس الى الحصول على تأييد لندن وبطرسبورغ لها من الوجهة الديبلوماسية في مناهضة ما كان ينسب الى المانيا من نيات الاعتداء . ولقد رفض بسمرك فى سنة ١٨٨٤ ما طالبته به ايطاليا من الوقوف في وجه الفرنسيين فى مراكش إذ أجاب بقوله : ان الاحساس بأن المانيا لا تريد الاحتفاظ بمتز وستراسبورغ فحسب بل تنفس على الفرنسيين امكان البحث عن عوض لحدود الرين فيما وراء البحار . الاحساس بان فرنسا تجد ألمانيا أبداً عقبة فى طريقها قمين بأن يقوي جانب حزب الانتقام حيالنا ويزيد في بغضاء الفرنسيين لنا ونشاطهم ضدنا ، قمين بأن يعجل بنشوب حرب فرنسية جديدة لا أعلم وقتئذ أي فائدة يمكن أن نجنيها اذا انتهت بفوزنا . فان حربا كهذه ولو انتهت بالفوز ستكون مصابا كبيراً . ولست ممن يمكن أن يأخذوا على عاتقهم تبعة السعي الى دخولها. » هذه اعتبارات أساسية كان يسترشد بها مستشار الامبراطورية وتهديه الى محجة الصواب في دائرة عمله السياسي الخارجي : فالمانيا لم تكن تريد من فرنسا شيئاً إذ كان بسمرك يبغي أن يعيش مع الجمهورية في سلام ، وكان يتمنى لها الخير فيما اتبعته في الخارج من سعي . على انه لم يكن أحد ينسى أن باريس كانت تحن الى الاقتصاص فلم يكن ندحة عن اتخاذ كل ما كان من شأنه أن يحول دون تحقيق هذه الرغبة .

ولقد وجد بسمرك أن أعظم أمان هو في عقد المحالفات مع الدول الاخرى حتى يقطع على فرنسا في القارة الطريق الى غرضها الذي كانت تخفيه . فسعى أول ماسعى الى العناية بأن يجد الخصم الابواب في فينا وبطرسبورغ مغلقة في وجهه لانه كان يتحامى أن يعود الائتلاف الذي كان يتربص

بفريد ريك الأكبر الدوائر ويحاول القضاء عليه . كان يتحامى الائتلاف بين فرنسا وروسيا والنمسا والمجر . ولحسن الحظ وقع في مملكة الطونة في أواخر سنة ١٨٧١ تبدل حاسم من الناحية السياسية ، فقد تولى الكونت يوليوس اندراسى وزارة الخارجية بدلا من الكونت فون بويست الذي كان يدأب على تحقيق خطة يبغي بها سيادة النمسا في داخل المانيا ، وولى وجهه شطر الجنوب الشرقى لا نحو الشمال وبعبارة أخرى نحو البلقان يسعى فيه الى أغراض جديدة لبلاده . فتفاهم بسمرك مع اندراسى لساعته على تآزر الامبراطوريتين في العمل . ثم خطب في نفس الوقت ود الروسيا فلقى من اسكندر الثاني تحبيذا للفكرة واغتباطاً بها . وبذلك تم في سنة ١٨٧٣ الاتفاق المسمى بحلف البراطرة الثلاثة الذى وعد على أساسه عواهل المانيا والنمسا والمجر والروسيا بأن يتفاهم ثلاثتهم اذا تعرض سلام أوروبا للخطر وان لا يعقدوا اتفاقات في أية جهة أخرى . وبعد مرور ثماني سنوات أي في ١٨ يونيه سنة ١٨٨١ زيد في متانة الاتفاق فجعل معاهدة حياد تتضمن النص على أن يضمن لكل من المتحالفين حياد صديقيه إذا دخل في حرب مع دولة عظمى . وقد دل مستشار الامبراطورية نفسه على قيمة هذا الاتفاق بقوله : لما كان القيصر اسكندر من الملوك الذين يعول على كلمتهم فانه يحق لنا أن نضمن استتباب السلام مع جارتينا (النمسا والروسيا) سنين . وفوق هذا فان الخطر من ائتلاف فرنسا والروسيا أصبح بالنسبة لالمانيا منتفياً انتفاءاً تاماً كما أصبح اتخاذ فرنسا حيالنا موقفاً سلمياً أمراً مضموناً . هذا الى أن ما ارتبط به قيصر (الروسيا) الشاب نحونا من شأنه أن يفسد محاولات حزب الحرب الروسى المعادى لالمانيا في التأثير على قراراته » وهنا أيضاً يبدو لنا واضحاً جدا ذلك الباعث الذي كان يدعو الى الحماية من خطط الهجوم الفرنسية .

على أن بسمرك لم يكتف بالكتلة التى خلقها وسط أوربا ظابا للسلام ، بل زاد عليها حائطا خارجيا قويا اذ وقعت في فينا في ٢٠ مايو ١٨٨٢ معاهدة

دفاعية بين المانيا والنمسا وايطالية بناء على سعيه فنص فيها قبل كل شيء على انه اذا اعتدت فرنسا على المانيا أو ايطالية دون مسوغ هبت لنصرة من يعتدي عليه كلتا الحليفتين الاخريين . وبذا أوصدت أبواب روما أيضا في وجه طلبات التحالف الفرنسية . واذا زدنا على ذلك ان مملكة الطونة عقدت مع رومانيا في ٣٠ أكتوبر ١٨٨٣ معاهدة دفاعية أيضا تضمنت تصريحا خاصا يسند المانيا ، تبينا عظم النطاق الذي بلغه بسمرك بمساعيه من أجل أمن المانيا .

لقد كانت فرنسا في الواقع منعزلة ولم تكن ثمة أية فرصة ظاهرة يمكن أن تنتهزها لتحقيق أطماعها في استرداد سيادتها في أوربا فقد أقيم لمدافعتها سد لا يمكن أن يفكر في إقامة أقوى منه في القـارة . وليس شك في أن سعي بسمرك في حماية الامبراطورية الالمانية الجديدة من الاخطار التي كانت تهددها بلغ حوالى ١٨٨٥ أقصى ما يمكن من النجاح. فقد أدرك مستشار الامبراطورية مبتغاه في المحافظة على السلام بصورة بديعة اذ أصبح من الواجب في حيثما نشأ خلاف أن تسمع كلمة برلين الفاصلة وبات في امكانهـا أن تدرأ أسوء الاحتمالات . وهكـذا حالت سياسة الدفاع سياسة عمل فعال للمحافظة على الحالة القائمة ، فلم تنم الامبراطورية الفتية وحدها تحت تلك القبة التي أظلتها بالمعاهدات ذات المناحي العديدة والمعقودة بين المانيا والدول الاجنبية ، بل نمت أوربا نفسها لانها صينت من كل ما يزعزعها : ومن خلق هذا المركز العام ؟ خلقه مخلوق سنة ١٨٧١ الذي أصبح بفضل بسمرك وهمته العالية وبفضل غريزته السياسية وما تبدعه هو المصرف للامور الجاعل من مصلحته الخاصة وهى السلام قانوناً تأتمر بأمره القارة . وهي حالة لم تكن من السيادة التي تستعبد الغير في شيء ولـكنها كانت زعامة لخير الجميع

ولقد أصابت جريدة بول مول غازيت الانجليزية كل الصواب حين كتبت عام ١٨٨٣ بمناسبة ذكرى سيدان تقول : ان تفوقاً كالذى تستمتع به المانيا وبالصورة التي يقوم بها ، فريد في بابه . فان مثل هذا النفوذ لم يتم لانجلترة

عقب ووترلو أو فرنسا عقب سولفيرينو أو القيصر نيقولا بعد أن أخمد الثورة المجرية . وماكان أغلب من عاشوا بين تقاليد التوازن الاوربي ليظنوا ممكناً أن توضع سلطة هائلة كهذه في أيدي حكومة واحدة دون أن يصيب السلام أذى كثير ، وأن يمس استقلال أوربا وتتأثر رفاهيتها العامة . ومع ذلك فانه ليس ثمة من رجل نزيه — بعد تجربة ثلاثة عشر عاماً — يستطيع أن يشك في أن تفوق ألمانيا في مجموعه كان أسلم عنصر في الحالة الاوربية . اجل ان السياسة الالمانية ارتكبت أخطاءاً إذ الألمان كغيرهم بشر ، لكن وجود هذه القوة السلمية العظيمة في وسط أوربا كان لخير أوربا ، ولو ضمن أن تستخدم هذه القوة في المستقبل بنصف الحكمة والتحفظ اللذين استخدمت بهما الى الآن لما كان من لايحب دوامها — فيما عدا تلك الطائفة القليلة من السياسيين الفرنسيين — سوى نفر قليل . ذلك انه ندر أن استخدمت قوة هائلة كهذه هذا الاستخدام الحسن .

ان نظام المحالفات الذي سار عليه بسمرك لايمكن أن يدرك قيمته كلها الا مستعرض لما كانت عليه الدول من تنافر حال هذا النظام دون انفجاره . فقد كان هنالك ذلك التنافر بين المانيا وفرنسا مما أسلفنا بيانه . وكان فوق ذلك مابين ايطاليا والنمسا والمجر مما يبدو للناظر أقل أثراً . وأهم من هذا وذاك وأكبر أثراً ما كان في ذلك الحين من تنافس الروسيا وانجلترة على النفوذ في آسيا . على أن أخطر جرح في كيان أوربا السياسي كان اذ ذاك هو البلقان الذي اتجهت اليه أنظار مملكة الطونه بعد اذ تولى خارجيتها الكونت أندراسي كما أسلفنا القول . ففي تلك الناحية ظهرت الروسيا بمطالب واسعة النطاق اذ كانت تسعى من أمد طويل الى امتلاك البوسفور والآستانة عاصمة الدولة العلية ليتيسر لها الخروج من البحر الأسود الى البحر الأبيض المتوسط . فكانت فينا تؤيد الباب العالي وكانت انجلترة تناهض كل تقدم لكبرى الدول السلافية نحو الآستانة لان هذا التقدم كان قمينا أن يهدد الطريق الى الهند .

أما الروسيا فجعلت تسعى سعيها بين الشعوب السلافية التى كانت تحت حكم الهلال وتجري وراء مصالحها . فنشبت في سنة ١٨٧٧ الحرب بين تركيا والروسيا . وكان من جرائها خصومة حادة بين فينا وبطرسبورغ ولندن . وهنا توسط المستشار الامبراطورى الألمانى في مؤتمر برلين صيف ١٨٧٨ فوفق بين الخصوم . فأخذت الروسيا بيسارابيا واتسع نفوذها في أرمينيا وحصلت النمسا على حق احتلال البوسنة والهرسك وبهذا حلت فترة هدوء لم تلبث أن اندلعت بعدها النار في امارة بلغاريا التى كانت خلعت عن عنقها هي وصربيا والجبل الاسود حكم الاتراك . فقد كانت بلغاريا حينذاك منطقة نفوذ لامبراطورية القياصرة . غير أنه سرعان ما طمع الروس فى أن يكونوا سادتها يصرفون مصائر شعبها الذي حرروه على النحو الذي يشاءون . فشجر الخلاف بينهم وبين أميرها اسكندر فون باتنبرج الذي كان لا بد له في آخر الامر من أن يلين لضغط بطرسبورغ عليه . ولقد انتهزت النمسا فرصة الفوضى التى لزمت هذا الحادث لاثارة الأنفس على الروسيا فاتسع الخرق بين مملكة الطونه وأمبراطورية القياصرة في صورة مقلقة حتى اذا جاء وقت تجديد المحالفة الثلاثية الامبراطورية أبت بطرسبورغ هذا التجديد فكان هذا الاباء صدمة صدعت بناء المعاهدات الذي شاده بسمرك وجعلت من المحال أن يجمع نظام الارتباطات المتبادلة ما بين الدولتين المتناظرتين في البلقان رأساً . وهكذا كان من الحتم أن تتبدل سياسة الامبراطورية الالمانية تبدلا حاسما بعد إذ ظل طوال وقته يعمل على أن يبتعد بألمانيا عن المنازعات فلم يكن مع ذلك محيص عن أن يزداد عداء الدوائر الروسية الوطنية لبرلين . ولقد عرفنا الآن أن قادة الدولة السلافية العظمى العسكريين كانوا منذ قام مؤتمر برلين يفكرون في الاستعداد للدخول في حرب مع المانيا فكان بسمرك مضطرا ازاء هذه الحالة التى أعرب عنها جانب كبير من الصحف الروسية بما كان ينشره من تحريض مر الى التخلى عن حله البديع الذي أوجده في النصف الاول من سنى

obeikandl.com

الثمانين . على انه وجد من هذا المأزق مخرجا مكنه برغم كل شيء من تأمين المانيا وضمان صداقة الخصمين المتنافسين في الشرق الادنى . واذا كان لم يستطع الجمع بينهما فقد استطاع على كل حال أن يتفق مع كل منهما على انفراد ليجنى من وراء ذلك كلمة نافذة هنا وهاهنا . فاستطاع بهذه الصورة أن يكون مركزاً يميل ذات اليمين وذات الشمال حانياً هنا وملطفاً هناك فكان كالعنكبوت إذ يمتد نسجه من حوله وإذ تتجه خيوطه وجهات متعارضة . وهكذا وصل الى عقد معاهدة ضمان مع الروسيا بينما قد بقيت النمسا في المحالفة الالمانية النمسوية المعقودة عام ١٨٧٩ وفى الاتفاق الثلاثي تسندها اتفاقية ايطالية انكليزية في البحر الابيض المتوسط .

لقد عقدت معاهدة الضمان في ١٨ يونيه سنه ١٨٨٧ لمدة ثلاث سنوات عقب مفاوضات طويلة ، وقد نصت في جملتها على ما يأتي : تعهدت المانيا والروسيا أن تلتزم كلتاهما الحياد إذا تورطت احداهما في حرب ، وأعطيت الروسيا الحق فى نفوذ حاسم متفوق فى بلغاريا والروملي الشرقى ، واعتبرت مضايق الاستانة كأنها مقفلة وفاقا لما تقرر فى مؤتمر برلين حلا لهذه المسئلة على أن تقنع تركيا بأن لا تعمل استثناءات ما من هذا الحل لمصلحة دولة أخرى . وقد تضمن ملحق سري خاص النص أيضاً على أن تؤيد المانيا الروسيا فى اقامة حكومة شرعية فى بلغاريا وأن لا توافق على ارجاع الامير فون باتنبرج . وقد تعهدت المانيا فوق ذلك أن تقف على الحياد فى حالة ما إذا رأى قيصر الروسيا ضروريا أن يتولى بنفسه الدفاع عن مدخل البحر الاسود حماية لحقوق أمبراطوريته وأن تؤيد الاجراءات الروسية تأييداً أدبياً وديبلوماتيكياً . ومن يفحص هذه المعاهدة تبدهه لاول وهلة التساهلات العظيمة التى تساهل فيها بسمارك لامبراطورية القياصرة والتى كانت بلا مقابل تقريباً من ناحية بطرسبورج . فانه جدير بالملاحظة بصفة خاصة ذلك النص الذى لا تلتزم بموجبه الحيدة المتبادلة فى حالة نشوب

حرب ضد النمسا وفرنسا اذا كانت هذه الحرب قد أثارها اعتداء من جانب أحد الفريقين المتعاهدين. فهنا قد ضحى المستشار الامبراطورى الالماني حتى بجانب من سياسته التى توخى منها الامان الى ذلك الحين وكل هذا ليحمل الروسيا على التعاقد معه. لقد فعل ذلك وفى حسابه أن يقبض به على النمسا والمجر أهم خصماء صديقته السلافية. ومن يضع نصب عينه مسلك بسمارك حيال مملكة الطونة يستبن على الفور مرمى معاهدة الضمان. فلقد فعل فى تلك المعاهدة ما من شأنه أن يقوي ظهر فيينا قبالة الروسيا. وقد تم هذا بمساعيه بذلك الاتفاق الانكليزى الايطالى المعقود فى ١٢ فبراير سنة ١٨٨٧ الذي تعهدت انجلترا وايطاليا بموجبه بالمحافظة على الحالة الراهنة في البحر الابيض المتوسط والمناطق المتاخمة له وكذلك في البحر الاسود. وقد انضمت النمسا فى ٢٤ مارس الى هذا الاتفاق أيضاً فكسبت بذلك جانب بريطانيا العظمى تأييداً لمصالحها المناهضة للتوسع السلافى فى الشرق الادنى ووقفت المانيا عن كثب تظاهر الفريقين وتؤيد رغبات المتنافسين. ومثل هذه السياسة — سياسة اليد الخفية كما كان يصفها صاحبها نفسه — لم تكن بحال من الاحوال خديعة تنطوى على الغدر بالنسبة للروسيا أو النمسا بل كانت أسلوبا طريفاً يتفادى به من انقلابات أوروبية كان يمكن أن تصبح خطراً على الريخ الالماني. وقد عاق هذه الانقلابات فى تكونها أن برلين استطاعت دائما أن تستخدم نفوذها الملطف هنا وهناك. فلو وقع التصادم على الرغم من ذلك لكان المستشار بحيث يستطيع أن يقرر نتيجة القتال وأن يحسم النزاع بتدخله تدخلا يقى هذا الصديق أو ذاك شر العواقب. وهكذا أجاد بسمارك التدبير بعمله الجديد الذى توخى به الامان.

على أننا لابد أن نسلم فوراً بأن حل سنة ١٨٨٧ بالنسبة للحل السابق البديع — ونعنى به نظام المعاهدات — يدل على خطوة واضحة الى الوراء. فقد اضطرت السياسى الحكيم قوة الحوادث والتحرج المتزايد من الخصومات

لاوروبية أن يستبدل بمركزه الاول المتحكم مركزاً ثانياً اقل ثباتاً من الاول لزعزعته المؤكدة ، فتراكمت الاخطار سنة فسنة ، وجعل البلقان — جرح القارة الذي كان يدمى جانبها الشرقي — يكابد التهاباً يزداد حدة على مر الايام كما اخذت الجامعة السلافية التي كانت تبغى سيادة الروسيا على الشعوب السلافية في جنوب اوربا الشرقي ترفع رأسها ويزداد الخطر من هذا الارتفاع شيئاً فشيئاً . وقد كانت تتحرك في فرنسا في نفس الوقت تلك القوى التي كانت تبغى انتشال الجمهورية من عزلتها وتسعى الى الانضمام إلى دولة القياصرة ، فكانت باريس اثناء المفاوضة في معاهدة الضمان تتوسل حتى بالوثائق المزورة لتفسد ما بين بطرسبورغ وبرلين . وهذه كلها كانت سحباً في الافق اقلقت بال بسمرك على الدوام ، إذ كان يعلم ان من المشكوك فيه « تسيير القيصر اسكندر بعد ذلك إلا برابطة معاهدة » فبحث في نفس السنوات الاخيرة التي كان فيها زمام الحكم في يده وراء رابطة جديدة تقي بلاده شر الاحتمالات المظلمة .

وكانت انجلترا همزة الوصل التي كانت لاتزال متاحة له . وقد رأينا كيف وفق المستشار الى دفع هذه البلاد الى المحالفة الثلاثية بتلك المعاهدة الخاصة بالبحر الابيض المتوسط والمعقودة بين ايطاليا والنمسا . وقد اعتبر بسمرك هذا خطوة عظيمة الى الامام إذ كان ابنه هربرت الذي كان إذذاك وزيراً في وزارة الخارجية يرى « ان استطاعتنا ربط انجلترة الى هذا الحد كانت توفيقاً يجب ان لا نستصغر شأنه » على انه مما لاريب فيه ان المستشار كان ينتوي السير الى ابعد من ذلك . واليك علاقته بانكلترة في خلال اشتغاله بتصريف امور السياسة الألمانية نعرضها بايجاز : كان يسعى الى الانضمام الى دولة الجزر قبل كل شيء اذا ماتوجس خيفة من فقدان الروسيا . فقد كان تحالفه مع النمسا وايطاليا وحدها لايكفيه إذ كان من رأيه ان المانيا بحاجة الى الاستناد الى دولة عظمى اخرى للمحافظة على مركزها . وهذه الدولة

obeikandi.com

اما أن تكون الروسيا أو بريطانيا العظمى . وقد بدا له بادىء الرأي أن يسير مع الاثنتين لكنه بعد ذلك لما ابتعد عن مناهضة الانجليز جعل يطرق باب لندن كلما أتعبته بطرسبورغ . ولذا عنى سنة ١٨٧٦ أثناء قلاقل البلقان بالسعي لدى الانجليز وراء معاهدة دون أن يصل الى غرضه طبعاً . ولما أعربت الصحف الروسية سنة ١٨٧٩ عن استيائها من نتيجة مؤتمر برلين بلهجة مرة عاود قرع ذلك الباب لكنه عاد فقطع المفاوضات التي كانت تبدو هذه المرة خيراً من سابقتها لما ان توقع ان هذا سيغير قلب الروسيا بصورة دائمة . ذلك انه كان يتحاشى أن يعقد مع الانجليز اتفاقاً ما يمكن أن يجر على ألمانيا خطر التورط في حرب انجليزية روسية . وقد أبان صراحة في كتاب بعث به الى اللورد سالسبورى السياسى الانجليزى بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٨٨٧ انه لايسعه ان يجعل بلاده سيفاً لبريطانيا العظمى في القارة . فانه كان يفكر في تفاق يطلق لكل فريق حريته ويريد أن يظل هنا وفي كل مكان بعيداً يرقب عن كثب . ومن يرد أن يلم بوجهة نظره في تسوية هذه المسألة أوضح ماتكون فليرجع الى طلب التحالف الذي عرضه على انجلترة سنة ١٨٨٩ فقد كان خوفه من إمكان تملص الروسيا برغم معاهدة الضمان زائداً إذ ذاك فأمل أن يصل مع لندن أخيراً الى نتيجة فكلف الكونت هتسفلد السفير الالماني لدى التامیز أن يقترح على اللورد سالسبورى عقد معاهدة بين المانيا وانجلترة الغرض منها الحيلولة معاً دون اعتداء فرنسا . وقد جاء في هذا التكليف « ان فكرتي هى ، اذا أقرها صاحب الجلالة ، أن تعقد بين الحكومتين الانجليزية والالمانية معاهدة تتعهد كلتاهما بموجبها بمساعدة احداهما الاخرى اذا هاجمت فرنسا أياً منهما في خلال السنة أو السنتين أو الثلاث المقبلة ، وأن تعرض هذه المعاهدة التى تربط الريخ الالمانى ، حتى ولو لم يصدر بها قرار برلمانى على البرلمان الانجليزى للتصديق عليها وتبلغ رسمياً للريشستاج الالماني . . واني اعتقد ان تأثير خطوة صريحة جريئة في هذا السبيل سيكون مروحاً مهدئاً لا في انجلترة والمانيا وحدهما بل في اوربا بأسرها أيضا »

هذا ما كان بسمرك يسعى اليه ، واضح للعيان . فهو لم يرد بالاتفاق مع بريطانيا العظمى ان يرتبط معها في مناهضة الروسيا . ذلك ان المانيا يجب وفاقاً لرأيه ان لا تكون ابداً مخفراً اماميا لحراسة المصالح الانجليزية في القارة الأوربية . فالسير مع بريطانيا العظمى يداً بيد يجب ان لا يكون الا حيث تلتقي منافع الدولتين او بعبارة اخرى في السهر على فرنسا حتى لا يعكر سلام اوربا . وهذه محالفة تحتفظ للفريقين باستقلالهما التام ولا تعرض ايا منهما لخطر الدخول في حرب لا تتفق وحاجات بلاده . على ان وزير خارجية الجزر البريطانية راوغ فلم يجب بلا او نعم بل ابدى اسفه لانه في تلك الآونة لم يسعه ان يفعل اكثر مما فعل . والسبب الذي من اجله وقف هذا الموقف هو ان اقتراح بسمرك لم يطابق رغبات انجلترة فان لندن كانت تأمل من السير مع احدى دول القارة نفس الذي اراد مستشار الريخ ان يتفادى منه . كانت تسعى وراء حليف تطلقه وقت الحاجة على منافسيها في القارة وعلى الروسيا قبل غيرها اذ ذاك . لانه عند ما طرق اللورد سالسبوري ابواب برلين في سنة ١٨٨٧ كان يريد ان يكسب المانيا الى جانب السياسة الانجليزية في الشرق الأدنى . وتلك السياسة كانت موجهة كما نعلم ضد الروسيا . فلم يشأ بسمرك ان يسير في هذه السبيل واعلن رأيه صراحة قائلا «ان سياستنا ترمي اذا مست الحاجة ، الى الاستمساك بالمحالفات التي تعرض لنا وتكون معينة لنا فيما اذا اضطرنا الامر الى محاربة جارتينا القويتين في وقت واحد » فمحالفة من هذا القبيل هي التي جرى وراءها في سنة ١٨٨٩

وان من يستعرض الجهاد الهائل الذي جاهده بسمرك لدفع الاخطار عن الامبراطورية الألمانية الجديدة القائمة وسط اوربا وينعم الفكر في تلك الاستحكامات التي اقامها حولها من المعاهدات التي عقدها مع الدول الأخرى ثم يلاحظ مبلغ ما بذله هذا السياسي العظيم في اخريات ايام عمله من مجهود لتذليل المصاعب المتراكمة التي كانت تكتنف الحالة العامة ، وللابتعاد ببلاده

obeikandl.com

القائمة وسط القارة عن الورطات — اقول ان من يفعل هذا يصل دون أن يشعر الى أن يستخلص أنه حتى تلك الهمة العالية همة أول مستشار للريخ الالمانى لم تعد تكفي على مر الايام للتغلب على الاخطار التى كانت تهدد المانيا . وان تراجعه عن محالفة البراطرة الثلاثة الى الاتفاق ذى الوجهين الذي عقده مع الروسيا والنمسا والجرتم محاولته عبثا أن يكسب انجلترة الى صفه يدل كله بوضوح تام على أن الافق كان دائب التجهم ، فقد كانت الخصومات التى ألمعنا اليها فيما سبق تزداد حدة من سنة الى سنة ، وكان الخرق يتسع على الدوام بين مملكة الطونة ودولة القياصرة . أما الدوائر الباريسية التى كانت تطلب الانتقام من وراء ستار فكانت قد انضمت الى حزب قوي يعمل للجامعة السلافية . في حين كانت انجلترة تنظر الى القارة نظرتها اليها فى الأوقات السالفة أعنى في ضوء مطالبها المحدقة بالكرة الارضية . وبالجملة فقد كانت الحوادث تختمر فى كل مكان وفى طي الخفاء ابتغاء تغيير الحالة التى كانت قائمة اذ ذاك .

على أن بسمرك قد نجح بدهائه غير العادي في أن يحول الى اللحظة الاخيرة أثناء تسييره دفة الامور في السفينة الالمانية دون وقوع تلك الاحداث العنيفة المظلمة . فان الاحترام الهائل الذى كان يتمتع به فى الخارج والذي أكسبته اياه شخصيته فى خلال عشرين سنة قضاها فى العمل الشاق لاجل السلام ، وذهنه الذاري الذي كان يخضع بحدته الاذهان ، ثم الثقة بخلوص طويته ، كل هذه كانت قوى لا تعدلها قوى أتاحت له على الوجه الذى كان يتوخاه في عمله نفوذاً حاسما . وأهم شيء أن الشعب الالمانى نما في كنف إدارته الموسومة بالاحتراس والتى حداها الاعتداد فلزمتها لذلك الجرأة ونهض نهضة اقتصادية لم يكن ازدهارها هذا الازدهار مما يخطر ببال . ولقد كانت سنو العز الخارجي هي الاعوام التى ارتفقت فيها الصناعة الالمانية إذ المت حمى التقدم بأمة اولئك الحالمين السابقين فكأنها كانت تريد ان يدرك جيل واحد ما فاتها فى عشرات بل مئات السنين الماضية ، فامتدت المدن في قلب

الريف وظهرت على سطح الارض المصانع في كل مكان وجعل التاجر يتصل بأقصى المعمور . وحفز الالمان أيضاً حب التغرب والاندفاع اليه اندفاعا اتخذ لدى الشعوب الاوربية شكلا ثابتاً من حكم البلاد الاجنبية وامتلاك المستعمرات الواسعة . أما لدى الالمان فقد ظهر باديء الأمر فى صورة التوسع التجاري ثم لم تلبث بعد ذلك أن رنت الدعوة الى امتلاك المستعمرات فيما وراء البحار لتهاجر اليها تلك القوى الزائدة عن حاجة البلاد . ولقد لبى بسمرك هذا النداء ولكن في شيء من الكراهية والمقاومة لان تفكيره كان منصرفاً الى أساس الرفاهية : الى مركز المانيا فى أوربا نفسها فكان يحس من نفسه ميلا ظاهراً عن ذلك السعى الى الاغتراب وأخيراً رضخ لتلك الروح الجديدة وكان الفضل الاكبر في طلب كل المستعمرات التى امتلكت فيما بعد لمعونته .

ان المأساة التى أصابت المستشار الامبراطورى الاول هى أن عمله الذى ابتدعته يداه ونعنى به الدولة الالمانية الجديدة ، تبدل تحت يده سريعاً ثم حال فجأة شيئا لا يشبه خالقه . فقد قدر لحامى حدود الدولة الحذر أن يشهد كيف ان الامة التى لم ينصرف لحظة عن العمل لوقايتها قد اتسعت اطرافها الى ماوراء هذه الحدود ، وان قوى فتية لم يفهمها كما لم يفهم فكرة الديمقراطية الاشتراكية ، قد رفعت رأسها . فلقد تكشفت النهضة التى اوجدها فجأة عن اخطار باطنة لم يقو سلطانه الذي حالفه في السياسة الخارجية هذا النجاح العظيم على مدافعتها على مر الايام ، فبات هذا المجاهد الدؤوب وحيداً وتخلى عنه العصر الجديد الذى اوجده لالمانيا . وليس شك فى ان هذا التطور كان ضروريا لازماً لزوماً مراً ككل التطورات التاريخية لكنه لم يكن خطر العواقب بالنسبة لذلك الرجل الوحيد المصرف للامور فحسب بل كان كذلك بالنسبة للشعب الالمانى بأسره . ذلك ان المانيا التى خلقها كانت تعيش سياسيا على بطولته . وباعتبار كونها دولة الوسط والدولة ذات الجناحين

المرضين وباعتبار كونها دولة عظمى جاءت الى الوجود متأخرة ، كانت بحاجة الى بطولة كهذه ليكون لها بعد ذلك حظ الحياة . وبسمرك لم يخلف في المنطقة التى كان يعمل فيها ، في منطقة السياسة الخارجية ، تلاميذ حقيقيين فيما عدا ولده هربرت الذى خرج معه فهل كان هذا ممكنا ؟ وهل يقع عليه من أجله لوم ؟ وهل يسع العبقرية أن تخلع على من حولها من المتوسطين شيئاً من شعاعها ؟ ليس من الهين الاجابة عن هذه الاسئلة اجابة عادلة . لكن الثابت وحده هو أن هذه الحقيقة الواقعة التى ألمعنا اليها كان معناها ، بالنظر الى أحوال المانيا الخاصة ، كارثة مزدوجة . ذلك ان الشعب الالماني لم يكن يملك بعد تلك القرون التى تملكه فيها الاغماء والتمزق ، شيئا من الخبرة بشئون السياسة الخارجية . وفي الوقت الذى كان المستشار المحنك يتولى قيادة اعتاد أن يلقى بمقاليده فيما يتعلق بتلك الشئون الى رئيسه آمنا مطمئنا . وهكذا كانت تنقصه كل غريزة سليمة لتفهم المصالح القومية في حين أن هذه الغرائز من تقاليد الامم الاخرى ولذا لم يكن الشعب فى جملته يفهم حياته السياسية .

وان خير دليل على هذا النقص الاساسى هو ذلك الحادث الباقى خزيه على الايام . هو أنه لم يحل حزب من أحزاب الريشستاج دون خروج بسمرك فى ١٨ مارس ١٨٩٠ بل لم يأسف له . ذلك ان أحداً لم يكن يعلم ما خسرته الامة عند ما اضطر المستشار الامبراطورى الى تقديم استقالته الى الامبراطور غليوم الثاني فكان هذا الخطر خطر الجهل السياسى العام في المانيا أعظم الاخطار التى كانت تتهدد الدولة الجديدة جميعا . وبذا أتيح لتلك الاحداث المظلمة التى كانت تتربص لالمانيا خارج حدودها أن تتفاقم بأسرع مما كان مقدرا لها وان تقوض ذلك الصرح الهائل الذى شاده الجبار العجوز .

obeikandi.com